فى الأدب الشرقى

من الأدب التركى الحديث

عبد الحق حامد

للدكتور عبد الوهاب عزام

نشرت فى « الرسالة » الماضية ترجمة المقدمة المنثورة التى كتبها شاعر الترك الأكبر للمرثية الكبرى التى رثى بها زوجه فاطمة وسماها « المقبر » ووعدت أن أنشر فى هذا العدد مثالا من شعر هذه المرثية .

ولا أكتم القارىء أنى حين وضعت الكتاب أمامى - وهو زهاء ألف بيت تدفق بها قلب الشاعر الحزين على غير ترتيب - لم أدر كيف أختار: الرسالة لا تتسع للأسهاب ، والإيجاز لا يفى بالأبانة. ولولا وعد لقراء الرسالة سبق ما كلفت نفسى هذا الشطط .

عبرت الكتاب أنتقى من صفحاته ، أبدأ ترجمة الفكرة ثم ، يضطرنى إطناب الشاعر إلى الوقوف دون غايتها . وأجد البيت الفرد البديع مكملا أبياتا كثيرة فلا أستطيع أن أترجمه وحده ، ولا أن أترجم كل ما اتصل به ، على أن فى بعض الأبيات إبهاما وغموضا وفى بعضها اضطرابا . وقد وصف الشاعر كتابه فى المقدمة التى يذكرها القارىء ، وقد ترجمت عجلان حين ضاق الوقت ، حتى أرسلت المقال بالبريد على قطعات ، من خوف « الزيات » :

....

أوّاه لم يبق الحبيب ولا الدار ، وبقى قلبى ملؤه الأحزان والأكدار . كانت هنا الآن فصفرت منها اليد ؛ جاءت من الأزل وذهبت إلى الأبد .

ذهبت وبقيت هى ترابا ، وحلت رفاتها قفرا يبابا . أواه انما بقى من أنس القلب الكريم ، قبر فى بيروت مقيم .

أين أين أفتش عن هذا الحبيب ؟ ومن أسائل عن هذا الغريب .

يارب ! أين أين هى : فى الأرض أم السماء ؟ رب ! من قذف بى فى هذا الشقاء ؟

يقولون : انس خِلّ الوفاء ، فقد سلك طريق البقاء . هل يسع الخيال هذه الحقيقة ، وهل ترى العين هذه الفجيعة ؟

ما أسرع ما انقلبت بى الحال ! انقلاب لا يصدقه الفكر والخيال . أرى شيئا ، أراه يشبه القبر ! ويشبه الحبيب حين أنعم النظر .

تمضى بى على الشك الليالى ، ويزيد على مرّها حزنى ووبالى .

إنها صدمة انقلاب قتّال ، فليت شعرى هل حُم لى الزوال ؟

هلمّ فاطمة اصعدى من اللحد ، وارجعى سيرتك التى أعهد .

لا تكتمى عنى هذا السّر . وأفصحى بكلمة . اواه إنما أريد كلمة منك .

ابتسمى ابتسام الورد ، وداوى جرح القلب . وأتمى أيام حياتى بنظرة معسولة ، أو بسمة ساحرة .

أقبر هذا ؟ ما هذا الذى أرى ؟ أمكان الحبيبة هذا الثرى ؟

انها لمحنة ، انها لحيلة ، انها لفنائى وسيلة .

أنظر أنظر كيف حالَ الياسمين المنوّر ، وانظر إلى الوجه الوردىّ كيف اغبرّ : تعسا لك تعسا أيها الجدّ الأعسر ، وياويلتا الى يوم المحشر .

رب ما غاية هذا العيش الأغبر ؟ وما غَدُ هذا البشر ؟

أبلغ فكرى روحها ، أو سيّر روحى إلى ترابها .....

ربّ ماهذا الصفر فى الحساب ، لكل الأرقام اليه انقلاب .

أهو عدم ذو وجود أو قبر فى اضطراب ؟ .....

لقد تولاها السقام ، وملأت صدرها الآلام ، تضحك وضميرها فى عذاب ، تخفى بضحكها خفى الأوصاب

وكم حسبها الناس فى سرور ، وما سرورها إلا الحزن المكتوم ، حتى ملأت باليأس نفسى ، وأثارت الفتنة فى قلبى .

القبر منتهى هذه الدقائق ، وسر عجيب من أسرار الخالق .

نور كلما مال للغياب ، هبط إلى كومة من التراب .

هذا أعلى الشواهق ، وهذا أروع الحقائق ، أيها الشقى تلك حقيقة لا تدرك . هذا شأنك ، وهذه فى الدنيا حالك .....

لقد كانت شعرا بليغا مبهما ، كان فكرها شاعرا ملهما .

« صحراء وتزر وأشبر (١) » من وحيها وما كنت الا واسطتها ....

(١) صحراء وتزر وأشبر ثلاث منظومات للشاعر

كنت أفهم هذا الوجه الشاحب، الذى منح شعرى اللون المعجب. تأبى أفكارى أن يكتب ويُفهَم، وهل تنحت الجبال بقلم؟

اجتمعت ضروب الآلام فى صدرها، والناس فى غفلة عن أمرها؛ كان كل من رآها يشفق عليها ويحبها، ولا يدرى لماذا؟...

وكانت ملكة الخلق الكريم. والفكر السديد. تشعر بخطرات نفسى وتقرأ أسارير وجهى.

وكانت وإن لم تكثر الكتابة، ملهمة لا تخطىء الأصابة، وكم فتنت منها بالكلم الدقاق والذكاء العجيب، قد عمر بها شعرى الخراب، وتلألأ فيه صنعها العجاب. كانت نجى الأفكار فى نفسى خبيرة بالكلمات التى تندّ عنّى.

....

تذبل الوردة الناضرة فتخلفها وردة أخرى، تضىء مكانها وتفترّ، كان الأولى لم تتغيّر. وتغرب الشمس المنيرة فاذا هى فى الصباح مشرقة. ولكن شجرة الورد هذه لن تزدهر، ولكن هذا النجم فى غروب مستمرّ.

سلكتْ بىَ الفِكرُ ألف سبيل وراءك أيها القمرَ فعىّ العقلُ دونك وأقصر. صاعقة ولكن لا يسمع صوتها، ونور يسقط ولكن لا يبين ضياؤه.

....

يارب أين أين الحقيقة؟ أجعلت الغم سر هذه الخليقة؟ مهما طال بى الأنين واستمر، فما هو الا كأنين الشجر.....

لاريب أن حياتى سم أنجرعه، فيدنينى من الموت الذى أرتقبه، شرّح هذا الوجود فهو عدم، وقلّب هذا السرور فهو ألم.

ليت شعرى أفى الموت نجاتى؟ ليت شعرى ماذا يحبب الى حياتى؟ قد انهدمت خليقتك علىّ يارب فكيف تحتها ثباتى؟

حسبى حسبى سَموم هذا القهر، حسبى حسبى طغيان هذا النهر. أليس لهذه السيول تناهى؟ حسبى جرعة واحدة ياالهى. مابقائى فى الدنيا! أعضو أنا فى جسم الدهر؟ أأنا يارب مرآة جلالك أم أنا شعاع من جمالك؟.....

....

أمامى مسجدَ التوحيد الوضاء، وفى عقلى الشك وفى قلبى الرجاء. وفوق لقاء السرمدية، وتحتى فناء الآدمية.

أرجو من الخالق خلودا، فيبدو لى التراب والحجر وعيدا(١) وأقول ان الانسان لا مرية، الى الفناء، فتصيح روحى: كلا إنه للبقاء..

(١) يريد تراب القبر وأحجاره

ان لم يكن للبشر مزية فى الوجود، فلماذا توحى اليه المشيئة الخلود؟ أيها القبر إنما هذا السكوت، خطاب الحى الذى لا يموت.

(يستمر الشاعر يقيم الحجج على خلود الانسان ثم يرجع الى خطاب حبيبته ثم يخاطب الله بين الاعتراض والتسليم الى أن يقول)

رب كيف لا أشكو؟ ألا يصيح الجريح؟ ماهذا القبر الذى أمامى؟ وضعت فيه حبيبا جميلا، وجعلت التراب حدود عقلى، وحبست ادراكى على هذا الحجر. واعتصمت بك فهويت علىّ.

إن لم يكن للبكاء جدوى فكيف يسكت القلب اللجوج عن الشكوى؟ لماذا تئن الطيور فى الأوكار؟ أليس لقلبى أغنية كهذه الأطيار؟

....

قالت لى يوما فى اضطراب: جئت الى الهند لأموت فى اغتراب. فضحكت من قولها وتكلفت الثبات، ولكنى أحسست أن قلبى قد مات. ثم ودعنا الهند بين الموت والحياة.

جاوزنا القناة فى غم وكرب، وليس القوت الا دم القلب.

كلما سألت أجاب السعال الظالم. ذلك الجواب المظلم.

حتى اذا لم يبق الا رمق، لاحت بيروت فى الأفق «ومر يوم ولم أدر بما كان وسألتها فاذا النعش عيان.

النعش هذا الدليل دليل المقبر، النعش ذلك الهيكل الأغبر، النعش ذلك الخطيب الأصم الأبكم، النعش ذلك الهمود المجسّم. النعش هذه السكتة المحيرة، النعش تلك المصيبة المكررة. النعش ذلك الانقلاب الصموت. ذلك الحدّ المتحرك للعقل المبهوت. النعش خرابة الأمل الخامد، النعش ذلك الاغبرار الخالد. النعش ظل المحشر على الاكتاف، النعش ذلك الموت المتموج النفّت على هذه الروح ألواحه ففتحت ذراعىّ للموت.....

أيها التراب المضىء، تراب الحبيب الصامت! أيها النور الأسود الثابت! ان قلبى ليتحطم من جمودك، وان روحى لتموت من خمودك.

لا لا، ليس ترابا انه موت نابت. لا لا، ليس موتا انه جؤار صامت. لتحرس الملائكة هذا القبر ولتضىء عليه الثوابت.

....

ليس ترابا كله قبر الحبيب، ان له قبرا آخر من النسيان الرهيب. النسيان أسفل المقابر، النسيان مقتل الأكابر.

وقبر آخر ذلك القلب الهباء فهو والتراب سواء. فالحبيب ذلك الملك المسافر، طائر بين هذه المقابر...

....

يارب ما أعظم محبتك التى أرى وما أعظم رحمتك التى